www.bintelnas.org

All illustrations and writing Copyright © 1999-2003 The Author except where otherwise noted.
Site design Copyright © 1999-2003 Bint el Nas. All Copyright and Trademark Rights Reserved.

العدد الثــانـي: مــــــسـافـة وإنــتـمـاء

مُـقـدّمــة بقلم يــافــا

أن تكوني "بنت الناس" يعني أنك إبنة أحدهم ولك عائلة. يعني الإنتماء الى أحدهم وإنتماء الآخرين اليك. للكثير من العرب، هذا الإنتماء للعائلة والمجتمع ضروري للتراث والهوية الحضارية. وللبعض الآخر، خاصة أولئك الذين ولِدوا او يعيشون في بلاد الإغتراب، فإن المسافة التي تفصلهم عن العائلة وغياب الإحساس بالمجتمع العربي يؤثران بشكل حادّ عليهم فتصبح هويتهم الحضارية مُعضِلة يَصعُب فـَهمُـها.

سواء عِشـتِ في الشرق الأوسط أو في شمال أفريقيا أو في بلاد الإغتراب، كَـونـُكِ مِـثـليّـة أو مُـزدوجة الميول الجنسية أو مغاير الجنس يَـخلق مسافة بينكِ وبين حضارتِـك العربية، أو نوعاً من المنفى الداخلي أو الغُربة. وهذا ما تُـجـِرّينه على نفسِك، إمّـا بسبب السكوت الذي إخترتينه أو الصمت الذي وَجَـبَ عليك الإحتفاظ به، أو بسبب نَـواح في حياتِـك عليكِ فيها أن تـتـخذي الخيار شبه المستحيل بين كونـِك من أحرار الجنس وكونـِك عربية. فبذلك تصبح هويتك الحضارية مُعَـقـدة أكثر. رغم ذلك، بهذا الإبتعاد عن حضارتـِك العربية تعبّرين عن وجودك كشخص. لكني أتأمّـل أنك تسيرين على خَـط الإنتماء أكثر الى جماعة المِـثـليّـات ومُـزدوجات الميول الجنسية ومغايري الجنس، سواء بلقاء أفرادها شخصياً أو عبر البريد الإلكتروني أو أية وسيلة إتصالات أخرى. ومع

هذه الجماعة قد تجدين طريقة تعبير أخرى عن نفسك كعربية، مهما كانت شبيهة أو مختلفة عن تجربتك السابقة.

أمّا بالنسبة لي، فما زلت أجد صعوبة في الجمع بين كوني إمرأة عربية و إمرأة ترعرعت في الغرب و إمرأة مِثليّة. طريق الجمع بين هويّاتي الثلاث هذه كان مليئاً بالأخطاء والمَطَبّات. مِثالاً على ذلك، خلال العام الثاني بعد مغادرتي لبيت أهلي، إستضفتُ حفلة ساهرة في منزلي. أمضيت ساعات طوال في تحضير شَتّى أنواع المُقبّلات التي أشتقت لطعمها خلال فترة وجودي بعيدة عن أهلي. حضّرتُ الحمّص والمُتبّل (المعروف أيضاً بـ"بابا غَنّوج") والكبيس طبعاً. وحضرت أيضاً ورق الدوالي، الكبّة، الصفيحة، الفطائر بالسبانخ والهريسة. شعرت وكأني أعبّر عن نفسي وأنا أعجن وأقطّع وأخلط. كنت مُتحكّمة بأدقّ التفاصيل، وهو شعور قَلّما راودني خلال مرحلتي الجامعية في بريطانيا.

رغم كل ذلك، لم أشعر بالمُتعة خلال الحفلة الساهرة لأن معظم الحاضرين ما كانوا أصدقائي فعلاً. معظمهم معارف وأصدقاء للتلميذة التي تشاركني المنزل. عندما رأى أحمقٌ منهم الفلافل والحمّص على الطاولة، صرخ قائلاً: "عظيم، أحبّ الطعام الإسرائيلي". بنهاية السهرة، راودني إحساس أني كنتُ مُستَغَلّة، رغم أنه ما قصد أحدهم أن يمسّ شعوري بشيء. كل ما فعلوه أنهم قد أكلوا الطعام الذي أعددته، ومرحوا في السهرة، ثم ذهبوا الى بيوتهم. في الحاضر، عندما أتذكر تلك الليلة، أشفق على نفسي المسكينة. كنت مسكينة لأني لم أجرؤ أن أشرح لهم شيئاً عن الطعام، أو لم أصادق أولئك الذين بادروا الى التحدّث معي... أو حتى لم أعَبّر لِمَعارفي عَمّا عَنى كل ذلك لي... كنتُ وحيدة وتعيسة وضائعة. أعتقد أن جزءاً كبيراً من تلك الغربة التي كنت أشعر بها تعود جذوره لعدم وجودي في مكاني "الطبيعي". فما كنت أدري حينها إن كنتُ أستطيع أن أحيا في هذه البيئة الغريبة عني. رغم كل الغضب الذي شعرتُ به، شَكّلَ السخط عُنصراً مهمّاً في جَزمي على التغلّب على الضياع الرهيب الذي خلقتُه في حياتي.

في نظرة سريعة على اللقاءات والحفلات الساهرة العديدة التي تلت في السنوات اللاحقة، تجدون مجموعة مُلَونة من البَشر والطعام والموسيقى، خليطاً من العرب والغربيين والآسيويين والأفريقيين والكاريبيين، من الرجال والنساء، من المِثليّين وأولئك الذين

يفضّلون الجنس الآخر. في بعض الأحيان كان التنوّع والتغيير مُعتمَداً، ولكن أحياناً أخرى كان التنوّع هائلاً لدرجة أنه يفاجئني عندما أنظر بعمق لِما وصلتُ اليه من تغيير داخلي.

عندما أقارن نفسي بصديقاتي اللواتي ما زلن تعشن في بيوت أهلهن في البلاد العربية (أو "في البلاد"، كما نقول)، لا أجد أنهن تشعرن بالراحة المُطلقة لإنتمائهن لبلادنا العربية. لكل منهن فرقة عسكرية من أولاد العمّ تحميهن من التعبير الذاتي والخبرة، وكل فرقة محصنة بجيش من الخالات والعموم حاضرون دوماً لتعزيز خَط التوجّه العامّ إذا ما إنجرفن عنه ذات يوم. لماذا تُشكّل عائلاتنا والمُقرّبين الينا عبئاً ثقيلاً علينا؟ تَوَجُّهُ هذه المؤسّسة كلّها هو دوماً نحو تعجيزنا عن إكتشاف الحياة، مع العِلم أن القدرة على إختبار أمور الحياة ما هي إلا القاعدة لإنبعاث الهوية الفردية. وما يُعَقّد الأمور أكثر ويضع المرأة في منفى داخلي هو إستحالة تعبيرها عن هويتها الجنسية لأي كان إلا وراء أبواب مُغلقة، وأحياناً عديدة هي عرضة للإبتذاذ... وكُلّنا نعرف جيداً تأثير هذه الأجواء علينا.

لكن عندما نتأمل الأمور بدِقة أكثر، نجد أن هنالك نتائج أخرى غير منظورة. في ظلّ هذا الجوّ الضاغط على النساء، هنّ تبنين حياة محورها المرأة، وتتواجدن مع بعضهن البعض في مجتمع يتنكّر بغالبيّته لوجودهن. إهتمامات النساء اليومية محورها المحافظة على المصداقية والهوية، بالإضافة الى الأمان والعلاقات العائلية والإجتماعية بشكل عام. فالنساء تريد أن تكون صادقة مع نفسها من غير مواجهة أخطار لا ضرورة لها. كل ذلك يتشابه مع حياة النساء العربيات قي بلاد الإغتراب على عِدة أصعِدة. بعض النساء تحاول خلق صِلات مع مجتمعات المِثليات في الخارج، رغم أنه يبدو صعباً أحياناً أن تَجِدْنَ سِمات مُشتركة. أن تجمع المرأة بين ذاتها العربية وهويتها الجنسية المِثلية أمرٌ مُباشرٌ لكنه صعبٌ كَلُغز في الوقت نفسه. وتتعقّد الأمور أكثر بسبب الإفتراض السائد في مجتمعنا العربي أن الجنسية المِثلية هي فكرة غربيّة ونتيجة للتدهور والإنحطاط في الغرب. هذا الإفتراض ليس له أيّة ركيزة حقيقية عندما ننظر الى المجتمع العربي في الماضي والحاضر، لكن رغم ذلك فإن هذه النظرية الإفتراضية لها قوتها في مجتمعنا. فالإتهام أن هويّة المرأة الجنسية هي رمزٌ لتأثير الغرب عليها، وأنها إتّبَعَت بلا وعي أيديولوجية المُستعمِرين... هذا الإتهام يُخيّم عليها دوماً. لكنها الآن تتخذ خيارات بوضوح لتعزيز هويتها العربية بهويتها المِثليّة.

تُصقَل وتُنحَت هواياتنا عندما يُشكّك بها الآخرون. موضوع هذا العدد من "بنت الناس" هو إنتماؤنا أو عدم إنتمائنا للناس الذين يتألف منهم مجتمعنا، وكيف نجد أو نتخذ مكاناً لنا لنعيش فيه بحرّية. لقد أمتعَني تحريرُ هذا العدد، وأعتزّ بعملي مع كل اللواتي كتبنَ مقالات لهذه المجلة. فكلّ منهن قَدّمت لموضوع العدد خِبرتَها ونظرتها العالمية، وهذا التنوّع هو سبب للإحتفال به.

رحلة ليلى مَكول من حَيّ صغير للعرب الأمريكيين الى العالم الواسع تعزف على وَتر حَسّاس لأي شخص كان عليه يوماً أن يتخذ خيارات صعبة ويجد أجوبة لأسئلة كهذه: "مَن أنا؟" و"الى أين أنتمي؟". ومَن مِنّا لم تواجه تلك الخيارات في حياتها؟ ليلى مكول ترسم رحلتها من عائلة متلاحمة ومتعاضدة الى الإنفصال والشعور بالوحدة، مروراً بزيارتها الى لبنان التي أثّرت عليها بقوة وغيّرت حياتها. الخيوط العديدة لقصّتها تعطي أمثالاً عن العوامل المُلوّنة التي تُحَدّد حياتنا وشعورنا بكياننا. كل ما حولنا يؤثر على نظرتنا الى أنفسنا، سواء أتى التأثير من الأحداث السياسية العالمية أو التقدّم التكنولوجي أو اللغة التي نتكلّم أو الأغاني التي نُحِبّ. المقاطع الأخيرة من قصة ليلى مكول تتكلم فيها عن الهوية التي يتغير شكلها كل ما أصبح شعور الإنتماء الى عِدة عوالم واضحاً وصريحاً أكثر. مَن مِنّا قد تخيّلت عند بداية قراءتها لرحلة ليلى أنّ إبنة عمّها سوف تُعبّر لها في النهاية أنها "من الناس المُفضّلين لديها"؟

تتطرق ماري سلّوم في قصيدتها الى مسألة المُطالبة بهويتنا أيضاً. فتصف علامات الهوية التي تُشعِرنا أننا غير مرغوب بنا لكنها تحضننا في الوقت نفسه، وترسم الألم الذي نشعر به لكوننا معزولين عن تراثنا. رغم ذلك فالشوق للإنتماء ما زال قوياً. إنه قوي أيضاً في ذكريات فيني بانسالي عن مدينة بومباي التي رحلت عنها منذ ست سنوات، وفي الحاجة الملحّة للمسلمين والهندوسيين أن يُعلِنوا أن المدينة هي مدينتهم. قصيدة لولو تعبّر لنا عن طريقتها الخاصة لخلق شعور بالإنتماء من خلال حياكة خيوط العوالم التي نعيش فيها وشبكها بعضاً ببعض: فالطفلة في القصيدة هي أيضاً المرأة التي تعيش حياتها الجنسية وفي صدرها ألمٌ وذكريات. قوّة ورهبة هذه الذكريات، واللحظات المصيرية التي نَصِل فيها الى تَقَبّل الذكريات وكياننا، كلّ ذلك تعبّر عنه بِنت جورج في وعدها لتلك المرأة الغالية في لحظة تَجَلّي الحقيقة. قدرة أو قوّة اللحظة المهمّة

التي تغيّر حياتنا هو موضوع التغيّر السِحري الذي كتبت عنه جولي شافر. أخيراً وليس آخراً، عبّرت الكاتبة سحاقيّة69 عن تنوّع الخبرة في قصيدتها "السيدة روبينسون" وفي مقطوعتها النثرية عن الموسيقى التي تعكس سيولـيّة تراثنا (أعني بذلك قابليّته للتغيير كالسوائل).

وتلك قد تكون آخر نقطة مهمّة علينا أن نتذكرها: تراثنا يتبدل ويتطوّر في عيوننا كلما عايشنا الحياة، وذلك يَعكس بكل بساطة التغيّرات في المجتمع الأوسع. فالبيت يُهدَم ويُبنى في الوقت نفسه الذي نحاول فيه أن نجد مكاناً مُريحاً لِنفترش الأرض. هنالك فعلاً سبب لإحتفالنا بتنوّع الأجوبة التي تَلَقّيناها: نحن الآن نجد إنتماءنا ونعمَل لِفهم كيف أننا ننتمي الى بعضنا البعض. بيتنا يَسَع لنا جميعاً طالما واصلنا الحوار مع أخواتنا البنّاءات ومع جيراننا.